كشف الشبهات: الدرس السادس

لفضيلة الشيخ الدكتور: عبد العزيزبن أحمد البداح

(بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين قال المؤلف غفر الله له ولشيخنا والحاضرين: أما المجمل فهو الأمر العظيم والفائدة الكبيرة لمن عقلها وذلك قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ ...﴾[آل عمران:٧]، وقد صح عن رسول الله ﷺ أنه قال: **((إذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سما الله فاحذروهم))** مثالٌ على ذلك إذا قال لك بعض المشركين قال تعالى...)

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين أما بعد:

فقد سبق في الدرس الماضي أن وقفنا على ما ذكره المؤلف من الرد على شبه المشركين وأن ذلك يكون من طريقين، الطريق الأول: الطريق المجمل برد المتشابه إلى المحكم، والطريق الثاني: الطريق المفصل، وفي الدرس الماضي بينت لك المراد بالمحكم والمراد بالمتشابه وأدلة رد المتشابه إلى المحكم، وأمثلة على اتباع المتشابه عند الفرق الضالة.

(مثالٌ على ذلك إذا قال لك بعض المشركين ألا إن أولياء الله لا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون)

في الدرس الماضي تكلمنا عن الولاية عند أهل السنة والمراد بالولاية وثمرات الولاية وحقوق الولي، وهل يجوز صرف شيءٍ من العبادة للولي وهل يجوز الجزم بالولاية لأحد، أو هل يجوز لأحدٍ أن يدعي الولاية؟ ثم ذكرنا أن المؤلف رحمه الله اختار هذا المثال لدقة فهمه رحمه الله، فإن باب الولاية من الأبواب التي دخل منها الشرك الأكبر عند طائفتين: الطائفة الأولى: طائفة الصوفية الذين زعموا الولاية لشيوخهم، والطائفة الثانية: الرافضة الذين قالوا بالإمامة، والإمامة عند الرافضة اسمٌ يقابل الولاية عند الصوفية، وذكرنا ما يتعلق بذلك كله.

هنا ذكر الله عز وجل: ﴿أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[يونس:٦٢]، وذكرت لك أن درجات الولاية عند أهل السنة على ثلاث درجات: الظالم لنفسه، والمقتصد، والسابق بالخيرات، وبينت لك المراد بكل درجة

من هذه الدرجات. الظالم لنفسه جاء في سورة فاطر والمقتصد جاء في سورة فاطر باسم المقتصد وجاء في سورة الواقعة باسم أصحاب الميمنة وجاء في سورة الإنسان باسم الأبرار، وجاء في سورة المطففين باسم الأبرار أيضًا، الدرجة الثالثة: السابق بالخيرات، هذا جاء في سورة فاطر باسم سابقٌ بالخيرات وفي سورة الواقعة: السابقون، وفي سورة الإنسان: عباد الله، وفي سورة المطففين: المقربون.

(أو إن الشفاعة حق وإن الأنبياء لهم جاهٌ عند الله) الأنبياء أفضل الخلق بإجماع أهل السنة والجماعة، نقل هذا الإجماع ابن تيمية رحمه الله في مجموع الفتاوى في موضع وفي منهاج السنة النبوية في موضع آخر، ودل على هذا القرآن والسنة: قوله عز وجل: ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُوْلَئِكَ رَفِيقًا﴾[النساء:٦٩]، لما ذكر الله المنعم عليهم ذكر أن أولهم هم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، والله عز وجل في سورة الأنعام لما ذكر الأنبياء والمرسلين: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ * وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ * وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ﴾[الأنعام٨٣-٨٦]

فدلت هذه الآية على تفضيل الملائكة على سائر العالمين، قال عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾[آل عمران:٣٣]، والاصطفاء هو الاختيار والاختيار يكون للأفضل، وقد جاء في السنة ما يدل على فضل الأنبياء والمرسلين على سائر الخلق، فقد جاء عند الترمذي وأحمد وابن ماجة: **((أن النبي ﷺ سئل من أشد الناس بلاءً؟ قال الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل))** فجعل النبي ﷺ الأنبياء في الدرجة الأولى في الفضل، وجاء أيضًا عند الترمذي وابن ماجة وأحمد أن النبي ﷺ قال: **((أن أبي بكر وعمر أنهما سيدا كهول أهل الجنة من الأولين والآخرين إلا النبيين والمرسلين))** المقصود أن الأنبياء والمرسلين هم أفضل الخلق وسادات الناس لكن فضلهم هذا لا يرفعهم إلى أن يمنحوا شيء من خصائص الربوبية أو أن يصرف لهم شيءٌ من حقوق الألوهية.

(أو ذكر كلامًا للنبي ﷺ يستدل به على شيءٍ من باطله وأنت لا تفهم معنى الكلام الذي ذكره فجوابه بقولك: إن الله ذكر في كتابه أن الذين في قلوبهم زيغٌ يتركون المحكم ويتبعون المتشابه وما ذكرته لك من أن الله تعالى ذكر أن المشركين يقرون بالربوبية وأنه كفرهم بتعلقهم بالملائكة...) في أول الكتاب ذكرت لك الأدلة على أن التوحيد ثلاثة أنواع وذكرت الأدلة على ذلك من القرآن وأن الأدلة من القرآن على ذلك كثيرة وأن هذا قول السلف من الصحابة والتابعين ومن بعدهم وذكرت لك أيضًا الفرق بين الربوبية والألوهية من وجوهٍ متعددة.

(وما ذكرته لك من أن الله تعالى ذكر أن المشركين يقرون بالربوبية وأنه كفرهم بتعلقهم على الملائكة والأنبياء والأولياء مع قولهم هؤلاء شفعاؤنا عند الله، هذا أمرٌ محكمٌ بين لا يقدر أحدٌ أن يغير معناه وما ذكرته لي أيها المشرك من القرآن أو كلام رسول الله ﷺ ...)

أهل السنة يعتمدون في الاستدلال والتلقي على ما جاء في الكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة وأشار الشيخ إلى هذا في كلامه هذا فأهل السنة يعتمدون على القرآن ويعتمدون على السنة ويعتمدون على إجماع سلف الأمة، والقرآن حجة قال عز وجل: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾[الشورى:١٠] وقال عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ...﴾[النساء:٥٩] وسنة النبي ﷺ حجة، وقد جاء قوله عز وجل: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾[النجم:٣-٤] وجاء عند أبي داوود بإسنادٍ صحيح: ((ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه)) وجاء عند أبي داوود بإسنادٍ صحيح ((اكتب فوالله ما خرج منه إلا حق)) وعلى هذا فالقرآن والسنة وإجماع سلف الأمة من مصادر الاستدلال والتلقي عند أهل السنة، خالف في هذا المخالفون لأهل السنة والجماعة من سائر الفرق والطوائف، وأتوا من جهتين: الجهة الأولى: الإعراض عن القرآن والسنة وإجماع سلف الأمة، الجهة الثانية التي أُتي منها المخالفون لأهل السنة فوقعوا في الانحراف: الفهم السقيم للكتاب والسنة، فإنهم لم يفهموا القرآن والسنة بفهم سلف الأمة.

أما الإعراض عن القرآن والسنة فهذا كان أحد أسباب كفر المشركين كما قال الله عز وجل: ﴿مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنْذِرُوا مُعْرِضُونَ﴾[الأحقاف:٣] والفهم السقيم للقرآن أو السنة كان هذا هو شبهة إبليس في كفره لما قال: ... أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾[الأعراف:١٢]، ففهم أن جنس ما خُلق منه يوجب تفضيله على آدم عليه السلام، ولهذا الناس إنما يُؤتون إما من جهة إعراضهم عن الكتاب والسنة أو من جهة فهمهما على غير وجههما، ولهذا لا أمان للمؤمن ولا عصمة له من الانحراف إلا بالأخذ بالكتاب والسنة وفق فهم سلف الأمة، ومن ضل من الفرق إنما ضل من هذين البابين ولهذا أعرضوا عن القرآن والسنة، وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله أن رؤوس المتكلمين لا يعرفون القرآن ولا السنة ولا يحفظونها ولا يفرقون بين القرآن والسنة فيقول أحدهم قال الله ثم يورد حديثًا، أو يقول قال رسول الله ﷺ ثم يورد آية بل إن أحد رؤوس المتكلمين أعطي لوحًا فيه المص فقرأه (المص) حتى قيل له ألف لام ميم صاد، ورؤوسهم كانوا على جهلٍ بالقرآن والسنة، فالغزالي على ما كتب في كثيرٍ من العلوم والفنون إلا أن بضاعته في الحديث ضعيفة، ولهذا امتلأت كتبه بالأحاديث المكذوبة والموضوعة، وكذا أيضًا الجويني على أنه برع في أصول المذهب وقواعده إلا أنه ليس له دراية

بالحديث، ولهذا أعرضوا عن السنة وإذا استدلوا بالسنة فإنهم يستدلون بالأحاديث الضعيفة أو الأحاديث الموضوعة المكذوبة المختلقة.

ومما يُذكر في هذا الجانب مما له علاقة بتوحيد الألوهية أنهم يستدلون بأحاديث موضوعة ويجعلونها عمدة في تقرير الشرك الأكبر، فيستدلون مثلًا بالقول: إذا أعيتكم الأمور فعليكم بأصحاب القبور، ويستدلون أيضًا بقول: لو ظن أحدكم بحجرٍ خيرًا لنفعه، وهذه الأقوال لا تصح نسبتها إلى النبي ﷺ والمخالفون لأهل السنة وقعوا من جهة القرآن الكريم في مخالفاتٍ عظيمة أوجبت انحرافهم وضلالهم، فذهب بعضهم إلى القول بتحريف القرآن، كالرافضة مثلًا، وبعضهم ذهب إلى تقديم العقل على القرآن الكريم كما هو شأن المتكلمين، وبعضهم ذهب إلى تأويل القرآن بتأويلاتٍ باطنية كالفرق الباطنية، أو تأويله بتأويلاتٍ تخالف ظاهره كما هو شأن المتكلمين هذا في القرآن. أما في السنة فإن الفرق المخالفة لأهل السنة وقعوا في ضلالٍ عظيم لما ردوا السنة بحجة وبدعوى مخالفتها للعقل كما هو شأن المتكلمين، وبعضهم رد أحاديث الآحاد ولهذا لا يستدلون بأحاديث الآحاد في باب العقائد ويقولون أنها لا تنهض لتقرير مسائل الاعتقاد ومن العجب أنهم يستدلون بالأحاديث الموضوعة والمكذوبة كما مر معنا لكنهم يردون الأحاديث الصحيحة التي في البخاري ومسلم بحجة أنها أحاديث أحاد وقد ذكر أحدهم أن الأحاديث الواردة في المنع من البناء على القبور أنها أحاديث أحاد لا تنهض في تقرير أو في المنع من البناء على القبور، ولهذا أهل السنة والجماعة يقولون بأن السنة الصحيحة أنها حجةٌ قاطعة، وأن السنة سواء كانت من المتواترة أو من الآحاد أنها توجب أو تفيد العلم اليقيني، ولهذا لو مر معك في كتب أصول الفقه أو في كتب المصطلح أن حديث الآحاد لا يفيد إلا الظن فهذا مما تسرب إلى هذه الكتب من آثار المتكلمين، وإلا فأهل السنة والجماعة يقولون بأن الحديث الآحاد إذا صح سنده فإنه يفيد العلم اليقيني ويجب العمل.

ثم ذكرت لك: أن الأصل الثالث الذي يرجع إليه أهل السنة هو إجماع سلف الأمة وهذا أيضًا خالفت فيه الفرق المخالفة، ولهذا فالرافضة والخوارج والمعتزلة يكفرون الصحابة أو يفسقونهم أو يذمونهم، وقد جاء أن عمرو بن عبيد أحد رؤوس المعتزلة يقول لو شهد عندي طلحة والزبير لما قبلت شهادتهم، فتحصل من هذا أن أهل السنة يعتمدون على ثلاثة أصول: الكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة، وهذه الأصول الثلاثة يخالف فيها جميعًا الفرق الضالة إما من جهةٍ واحدة وإما من أكثر من جهة كما بينت لك.

الكتاب والسنة يجب أن يكون فهمهما بفهم سلف الأمة، وسلف الأمة هم الصحابة والتابعون ويدل على هذا ثناء الله عز وجل على الصحابة، ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ...﴾[التوبة:١٠٠]، لقد رضي الله عن الذين يبايعونك الشجرة، وجاء في الصحيح **((خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم))**، وجاء في صحيح مسلم **((أصحابي أمنة أمتي فإذا ذهب أصحابي أتى أمتي ما يوعدون))**

وقد قال قتادة في قوله عز وجل: ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾[سبأ:٦]، قال هم أصحاب النبي ﷺ، وقال سفيان بن عيينة في قوله عز وجل: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى ...﴾[النمل:٥٩]، قال هم أصحاب النبي محمد ﷺ ولهذا فالأحاديث والآثار في الثناء على السلف رحمهم الله.

لماذا نقدم فهم الصحابة رضي الله عنهم للنصوص على فهم غيرهم؟ لأنهم عاصروا التنزيل ولطهارة قلوبهم ولأنهم أعلم باللغة العربية ولأنهم أحرص الناس على العلم والعمل، فلهذا كله قدمنا فهم الصحابة رضي الله عنهم على غيرهم، وقد قال الإمام أحمد رحمه الله لتلميذه الميمون: إياك أن تتكلم في مسألة ليس لك فيها إمام -يعني من السلف- مسائل الدين من جهة كلام الصحابة أو السلف عنها من عدمه على نوعين: النوع الأول: مسائل تكلم فيها السلف فلا يجوز الخروج عن أقوالهم، وإما مسائل لم يتكلم فيها السلف فلا يجوز الخروج فيها عن قواعدهم التي قرروها في الاستدلال والاستنباط.

ما القواعد التي قرروها؟ القواعد التي قررها السلف رحمهم الله في الاستدلال والاستنباط: وجوب الرجوع إلى الكتاب والسنة، اشتمال القرآن والسنة على أصول الدين وفروعه، وجوب الأخذ بظواهر النصوص، وجوب ترك التكلف والتأويل، وجوب الاعتماد على اللغة العربية في تفسير النصوص، هذه القواعد وضعها سلف هذه الأمة.

وبعض العلماء يقول أو يعبر بتعبيرٍ آخر فيقول أن فهم سلف الأمة يكون التزامه بالتزام إجماعهم أو بما اشتهر من أقوالهم ولم يُعرف له مخالف، فيكون كالإجماع السكوتي أو بما لم يُشتهر وهذا ما يرجحه شيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيم رحمه الله تعالى، وقد أطال ابن القيم رحمه الله في إعلام الموقعين في الاحتجاج على قول الصحابة رضي الله عنهم وعلى أقوال الصحابة رضي الله عنهم وعلى إجماعهم.

(وما ذكرته لي أيها المشرك من القرآن أو كلام رسول الله ﷺ لا أعرف معناه ولكن أقطع أن كلام الله لا يتناقض وأن كلام النبي ﷺ لا يخالف كلام الله عز وجل وهذا هو جوابٌ جيد سديد ولكن لا يفهمه إلا من وفقه الله تعالى) العقل إما أن يكون عقل إدراكٍ وإما أن يكون عقل رشدٍ، عقل الإدراك: هو الذي يناط به التكليف، وهذا الذي أثبته الله عز وجل للكفار وهذا لا يترتب عليه مدحٌ ولا ذم، العقل الثاني: عقل رشدٍ: وهو الذي يحمل صاحبه على الانتفاع بعقله وهذا الذي نفاه الله عن الكفار في قوله سبحانه: وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل.

(ولكن لا يفهمه إلا من وفقه الله تعالى فلا تستهن به فإنه كما قال تعالى: ﴿وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾[فصلت:٣٥]، وإما الجواب المفصل فإن أعداء الله لهم اعتراضات كثيرة على دين الرسل ويصدون بها الناس عنه، منها قولهم نحن لا نشرك بالله..)

شرع المؤلف الآن في بيان الشبه الثلاثة الرئيسة للمشركين، فإن المؤلف رتب كتابه على مقدمةٍ ثم شرع في بيان طرق الرد على الكفار الطريق المجمل الذي مضى معنا، برد المتشابه إلى المحكم ثم الرد المفصل بعرض ثلاث شبهٍ رئيسة ستأتي، ثم شبهاتٍ فرعية ستأتي. بدأ المؤلف الآن بالشبهة الأولى.

(منها قولهم نحن لا نشرك بالله بل نشهد أنه لا يخلق ولا يرزق ولا ينفع ولا يضر إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدًا ﷺ لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًا فضلًا عن عبد القادر أو غيره) المراد بعبد القادر هنا: عبد القادر الجيلاني، المتوفى سنة ٥٦١ وهو من أهل السنة والجماعة، لكن أصحابه وأتباعه غلوا فيه وصار له مقامٌ عظيمٌ عندهم وصار يُدعى ويُستغاث به من دون الله تعالى ونسبت له طريقة صوفية اسمها القادرية، وهي منتشرة في أنحاء العالم الإسلامي لكنها لا تستقيم مع عقيدة الشيخ السوية، فإن عقيدة الشيخ عبد القادر الجيلاني عقيدة أهل السنة والجماعة في أبواب الدين وأصول الاعتقاد، حصل منه هفوات لكنها تُغمر في بحر فضائله، وقد ألف كتبًا كثيرة من أشهرها الغنية لطالب الحق قرر فيها مذهب أهل السنة والجماعة وله كتابٌ آخر اسمه أصول الدين وهو أيضًا في تقرير عقيدة أهل السنة والجماعة، وشيخ الإسلام ابن تيمية نقل من كتاب الغنية كثيرًا وعلق عليه وشرحه وأثنى عليه في مواضع، يُنسب إلى الشيخ عبد القادر أقوال لكن لا تصح نسبتها إليه في تقرير الشرك الأكبر أو في الدعوة إلى دعاء غير الله عز وجل.

(فضلًا عن عبد القادر وغيره، ولكن أنا مذنب والصالحون لهم جاهٌ عند الله وأطلب من الله بهم، فجوابه بما تقدم) وقد سبق أن تقدم أن المشركين يقرون بالربوبية لكن النبي ﷺ قاتلهم على الألوهية وذكرت لك الآيات التي تدل على الألوهية، وأقوال السلف والأئمة في ذلك، ومن تأمل القرآن وجد أن الله عز وجل أقام استحقاقه للألوهية وبين بطلان عبادة من سواه من وجوه، الوجه الأول: أن الربوبية دليلٌ على الألوهية، فإذا قال المشركون هنا أننا نؤمن بأنه لا ينفع ولا يضر ولا يخلق ولا يرزق إلا الله فهذا في الربوبية فنلزمهم بتوحيد الألوهية، وهذا كثيرٌ في القرآن، قال عز وجل: يا أيها الناس اعبدوا ربكم: هذا توحيد ربوبية، الذي خلقكم والذين من قبلكم: هذا توحيد الربوبية، قال عز وجل: ولإن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله: هذا في توحيد الربوبية، ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾[الزمر:٣٨]، أول الآية في الربوبية، وما بعده في الألوهية، وقال عز وجل: ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله: هذا في توحيد الألوهية، الذي خلقهن: هذا في توحيد الربوبية، قال عز وجل في أول سورة الصافات: إن إلهكم لواحد: توحيد الألوهية، رب السماوات والأرض وما بينهما ورب المشارق: هذا في الربوبية، صار عندنا الوجه الأول مما أقامه الله عز وجل في بيان استحقاقه للعبادة وبطلان عبادة من سواه، الاستدلال بالربوبية على الألوهية وهذا كثيرٌ في القرآن.

الأمر الثاني: الاستدلال بالأسماء والصفات على الألوهية وجه ذلك أن الموصوف بالكمال هو المستحق للعبادة، وتأمل الآيات التي جاء فيها إثبات الأسماء الحسنى ستجد أن الله عز وجل يجعل ذلك دليلًا على استحقاقه للألوهية، قال عز وجل: ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها، هذا الذي له الأسماء الحسنى سبحانه يستحق أن يُدعى بها وهذا توحيد الألوهية، قال عز وجل: قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن: هذا في الألوهية، أيًا ما تدعوا فله الأسماء الحسنى، وقال عز وجل: الله لا إله إلا هو: هذا في الألوهية، له الأسماء الحسنى، في آخر الحشر يقول الله عز وجل: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ * اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ * اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[الحشر:٢٢-٢٤]

، ففي هذه المواضع الأربع ذكر الله عز وجل أسماءه الحسنى الدالة على اتصافه بالكمال، وجعل ذلك دليلًا على استحقاقه للعبادة، وعليه بطلان عبادة من سواه.

الوجه الثالث: ضرب الأمثال في استحقاقه سبحانه للعبادة وبطلان عبادة من سواه، وسبق وأن ذكرت لك عند بيان ضعف كيد الشيطان وأوليائه الأمثلة التي ضربها الله عز وجل، كقوله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ ...﴾[الحج:٧٣]، وكقوله عز وجل: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾[العنكبوت:٤١]. وآية النحل قوله عز وجل: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾[النحل:٧٥]، ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّهُّ لا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾[النحل:٧٦]، وفي آية الزمر: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾[الزمر:٢٩]، وبينت ما تتضمنه هذه الأمثال من الدلالة على استحقاق الله للعبادة وبطلان عبادة من سواه، وقال سبحانه في سورة البقرة: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ﴾[البقرة:١٧١]، فشبه الله عز وجل الذي يعبد غير الله بالناعق، عابد الصنم كالناعق كالصارخ، والمنعوق به الصنم المعبود، فشبهه الله عز وجل براعي الماشية يصوت لها لكنها لا تعي مما يقول إلا مجرد الصوت.

الوجه الرابع: مما أقامه الله عز وجل في استحقاقه للعبادة وبطلان عبادة من سواه ما في هذه المعبودات من دون الله من النقص الظاهر البين فبين سبحانه أنها لا تنفع ولا تضر وهذا في آياتٍ كثيرة، ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنفَعُهُمْ وَلا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيرًا﴾[الفرقان:٥٥]، بين سبحانه أنها لا تخلق، ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لا يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ﴾[النحل:١٧]، بين عز وجل أنها لا تنصر نفسها ولا عابديها لا يستطيعون نصركم ولا أنفسهم ينصرون، وبين سبحانه أنها مخلوقة من مخلوقات الله ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ...الأعراف:١٩٤]، بين سبحانه أنها لا تنطق ولا تسمع: ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ ...﴾[فاطر:١٤]، بين سبحانه أنها لا تملك: ﴿... وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾[فاطر:١٣]فتلخص من هذا: حتى نستطيع أن نرد على المشركين نقول أن الله عز وجل أقام في القرآن الأدلة التي تدل على استحقاقه للعبادة وبطلان عبادة من سواه من وجوهٍ أربعة: الأول: أن الربوبية دليلٌ على الألوهية، أن الأسماء والصفات دليلٌ على الألوهية، ضرب الأمثال -وهذا كثيرٌ في القرآن- والأمر الرابع ما في هذه المعبودات من النقص الظاهر البين.

إذا فقه الموحد وداعية الإيمان هذه الأصول العظيمة استطاع أن يرد المشركين ولم ينطلي عليه ما يروجون من الشبه الضعيفة المتهافتة التي لا تقوى على الوقوف أمام النصوص الصريحة الصحيحة المحكمة من الكتاب والسنة.

(فجوابه بما تقدم وهو أن الذي قاتلهم رسول الله ﷺ مقرون بما ذكرت ومقرون أن أوثانهم لا تدبر شيئًا وإنما أرادوا الجاه والشفاعة واقرأ عليه ما ذكر الله في كتابه ووضحه..)

ونكون بهذا انتهينا من الشبهة الأولى، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد.